**العلاقة الروسية الفلسطينية قبل ألف عام
رحلة دانيال الراهب نموذجا**

**أ.د إحسان الديك**

**جامعة النجاح الوطنية /فلسطين**

تتحدث الدراسات التي تناولت العلاقة الروسية الفلسطينية عن قدم هذه العلاقة وعراقتها، وإنها تعود إلى أكثر من ألف عام، بيد أنها لم توضح مبدأ هذه العلاقة، والباعث على وجودها، والدافع وراء تطورها، ولم تقف على أسها وأساسها.

وليس نافلة القول: إن من جماليات هذه العلاقة-كما ورد في المدونات والوثائق الرسمية الروسية – أن بدايتها كانت روحية لا مادية، نبعت من محبة الروس للديار المقدسة بعد انصرافهم عن الوثنية واعتناقهم الديانة المسيحية.

كان ذلك في أواخر القرن العاشر الميلادي، حينما زارت القيصرة الروسية أولجا القسطنطينية واعتنقت المسيحية الأرثوذكسية سنة 957م [[1]](#footnote-1)، وحينما اعتنق حفيدها الأمير فلاديمير(980-1012م) هذه الديانة أيضا وفرضها على رعاياه، وبنى الكنائس في أماكن العبادة الوثنية، وتابعه في ذلك ابنه ياروسلاف (1015-1054م) الذي دعم سياسة والده وبلغ بها أفقا أكثر انتشارا[[2]](#footnote-2)، ومع نهاية القرن العاشر الميلاي عمت المسيحية الامارات الروسية، وغدت الديانة الرسمية، وأقبل عليها الروس بحب ورغبة، ظهر ذلك من خلال بناء الأديرة والكنائس الكثيرة، والاهتمام بالمعطيات والمعلومات التاريخية والدينية والثقافية الكثيرة التي وردت في التوراة والإنجيل عن الديار المقدسة، مما ولد لديهم حماسا روحيا دفعهم للحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين مهد المسيح عليه السلام ومكان التجسيد والقيامة والوحي.

 زخرت أخبار الرحالة والحجاج الروس إلى فلسطين في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين بمعلومات نادرة عن الديار المقدسة ومعالمها الدينية والجغرافية والعمرانية، لكن كثيرا منها يلفه الغموض لبعدها الزمني، ولأن بعض الرحلات التي تم تدوينها لم يصل منها إلا القليل من النصوص وباتت في عداد المفقودات.[[3]](#footnote-3)

 ومع ذلك تشير السجلات التاريخية إلى أن جموعا من المؤمنين الروس زاروا الأماكن المقدسة في فلسطين ،ومنهم الرحالة أنطون الذي بدأ رحلته عام 1013م من الجبل المقدس،وعاد إلى كييف عام 1017م ومنهم الرحالتان فارلام وايغومين ديمتروفسكي اللذين ذهبا لزيارة الديار المقدسة عام 1022م، وتذكر هذه السجلات كيف التقى رجل الدين الأرثوذكسي فيودوسي بيترفسكي في مدينة كورسك الروسية عام 1102م بالحجاج العائدين من الأماكن المقدسة بفلسطين.[[4]](#footnote-4)

 وردت أخبار فرق الحجاج الروس للأماكن المقدسة بفلسطين في الملاحم الشعرية الروسية، وكانت هذه الملاحم مصدر الهام لكثير من الشعراء والكتاب قدامى ومحدثين، اذ تحدثت عن رحلة فاسيلي بولاسييف الذي خرج في ركب الحج مع أربعين تقيا من زملائه إلى الأرض المقدسة، للسجود أمام ضريح السيد المسيح، والتمسح بالقداس الأبدي، والاغتسال في نهر الأردن، وحققوا بغيتهم بقضاء فريضة الحج والتبرك بزيارة القدس وغيرها من الأماكن المقدسة[[5]](#footnote-5)

 لعل المشاعر الدينية الوقادة هي التي دفعت الحجاج الروس من كييف ونوفغورود وفلاديمير إلى الديار المقدسة والعودة إليها ثانية للتغلب على المخاطر التي كانوا يواجهونها جراء التقلبات السياسية، والحروب الصليبية،والكوارث الطبيعية، وانتشار القراصنة وقطاع الطرق، وهي التي جعلتهم يتجاوزون المتاعب وهم يسيرون لأشهر أو سنوات راجلين تارة ،وعلى دواب تارة أخرى، برا أو بحرا، وهم لا يعرفون لغة أهل البلاد وعاداتهم وتقاليدهم.

 غدا وجود كثير من الحجاج الروس في فلسطين في القرنيين العاشر والحادي عشر أمرا مألوفا، وعلى الرغم من شيوع هذه الرحلات الدينية عند الروس إلا أننا لم نجد عندهم رحلة مدونة مثل رحلة (المسيرة) للراهب الحاج إيغومين دانييل، فهي أشهر وأقدم وأكمل رحلة مدونة وصلت إلينا عن الرحلات الروسية المبكرة إلى الديار المقدسة، وهي إضافة إلى طابعها الأدبي تعد مصدرا مهما وعريقا في التاريخ والجغرافيا والاجتماع والعمران عن فلسطين والشرق الأدنى القديم.

 **صاحب الرحلة:**

 بقي اسم هذه الرحلة واسم صاحبها الأول مجهوليين عند الذين ترجموها[[6]](#footnote-6)، أو تناولوها بالدراسة [[7]](#footnote-7) إلى أن أشار إليهما الباحث في الشؤون التاريخية الأكاديمي الروسي ناظم مجيد حمود في مقالة له نشرها في جريدة القدس العربي بتاريخ 30/1/2004.

 وما رشح من معلومات عن هذا الراهب أنه كان اسقفا ورئيس دير في سراييف وأنه قدم من إقليم تشرينجوف في روسيا الوسطى، وكان معاصرا لأقدم المؤرخين الروس نسطور، وتوفي في التاسع عشر من سبتمبر 1922 ميلادي[[8]](#footnote-8).

**أهمية الرحلة:**

 تكمن أهمية هذه الرحلة في قدمها وتعدد الأماكن التي شملتها، حيث بلغت سبعة وتسعين موضعا في ثلاث دول عربية هي فلسطين والأردن ولبنان، وإلقاء الضوء على حال هذه البلاد بعيد الغزو الصليبي لها،"ولعل المجال الواسع التي تعالجه روايات دانيال كان أكبر من رحلات حج سابقة، حيث تتميز بسرد التفاصيل، والصدق الواضح، مم أكسبها أهمية كبيرة وقيمة متميزة، وقد تنقل كثيرا في فلسطين وزار معظم الأماكن الذي لاذ بها المسيحيون والأماكن المقدسة والأديرة، وفي كل مكان كان يختار لنفسه أفضل المرشدين،وكان يكتب وصفا دقيقا لكل ما شاهده، ولم يصف شيئا لم يره بعينه، يؤيد هذا أنه كان يعترف صراحة بأنه كان يعتمد على الأخريين في المعلومات عن المكان الذي لم يتمكن من زيارته بنفسه.[[9]](#footnote-9)

 ويمكن القول باطمئنان :إن هذه الرحلة هي "رحلة دينية بكل أبعادها من خلال الباعث عليها، والدافع وراء القيام بها، وسبب تدوين صاحبها لها،واقتصارها على الأماكن الدينية فقط، واستخدام كاتبها العبارات الدينية في وصفها"[[10]](#footnote-10)، إنها كما يقول كانت خالصة لوجه الرب: "إن الشخص الذي ينجز هذه الرحلة بتواضع وخشية من الله لن يأثم أمام الرحلة الإلهية... ولكنني آمل أن رحمة الرب ودعواتكم لي يمكن أن تمنحني عفو الرب المسيح عن خطاياي الكثيرة، لقد وصفت تلك الطرق والأماكن المقدسة دون فخر أو اعتزاز بشيء ما، كالحصول على مكافأة أو تقدير" [[11]](#footnote-11).

 بدأ الراهب دانيا رحلته في فلسطين بعد وصوله بحرا إلى ميناء يافا، ومروره باللد، ومنطقة النبي صموئيل، وصولا إلى القدس ،وإقامته في دير القديس سابا، ومكوثه ستة عشرشهرا فيها، وزيارته لكل الأماكن الدينية المسيحية في القدس وما حولها ،مثل بيت لحم، وبيت جالا، وبيت ساحور، حتى وصل الخليل، ثم انطلاقه شمالا إلى بحيرة طبرية، وجبل طابور، والناصرة، وأريحا، ودير القرنطل، ونهر الأردن، ولقد ركز في زياراته على وصف جمال الأماكن الدينية وخصوبة أراضيها وكثرة خيراتها.

 لم يهتم دانيال كثيرا بأحوال الناس الاقتصادية والإجتماعية وطبقاتهم وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم وانتماءاتهم الدينية والعرقية، ولا بالجوانب العمرانية آنذاك ولم يذكر أهمية الساحل الفلسطيني وأثره في التجارة العالمية ،وإنما اكتفى بذكر بعض المدن الساحلية مثل عكا وحيفا.[[12]](#footnote-12)

 ومما يؤخذ عليه-مثل غيره من الرحالة الأوروبيين- اعتماده على الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم في وصف الأماكن الدينية، إذ وثق كثيرا من الأماكن والأحداث المرتبطة بها معتمدا على الروايات التوراتية التي لم يكن ضليعا بها، مما أوقعه في كثير من المغالطات والأخطاء[[13]](#footnote-13)، فنراه يذكر المذبح الذي قدم فيه إبراهيم عليه السلام كبشا بدلا من اسحق حسب الرواية التوراتية [[14]](#footnote-14)، وحين زار أريحا ذكر كيف استولى عليها يوشع بن نون ودمرها، وكيف ظهر له الملك ميكائيل وقال له:"قد أرسلت لمساعدتك، كن شجاعا وسوفا تقهر أعداءك",[[15]](#footnote-15) وكيف وقفت الشمس على جبل جبعون (القرنطل) نصف يوم ليتسنى ليوشع النصر على أوج الكنعاني ملك بيسان.[[16]](#footnote-16)

 وفي حديثه عن الخليل يعترف أن أول ساكن لجبل الخليل هو كنعان بن حام، لذا سميت فلسطين بأرض كنعان، غير أنه يؤكد بعد ذلك على أسطورة أرض الميعاد التي وردت في التواراة.[[17]](#footnote-17)

 وبعد، فليس غريبا أن تكون فلسطين بما حباها الله من أماكن دينية وأن يكون الدافع الديني نحو هذه الأماكن سببا في العلاقة الودية بين الروس وشعب فلسطين، فالطالما كانت هذه الأرض وما تزال محط أنظار أتباع الديانات الثلاث ،ومهوى أفئدتهم، وعسى أن تكون علاقة هؤلاء الأتباع بالأرض المقدسة -كما يدعو الدين- علاقة وود وحب وسلام ،كما العلاقة مع الروس عبر القرون، وليست علاقة قهر وقمع وطمس ومحو واحتلال ،كما يفعل اليهود باصحاب البلاد الشريعيين.

 المصادر والمراجع

1- حمود، ناظم مجيد: الحجاج الروس وأسوار القدس، جريدة القدس العربي بتاريخ 30/1/2014

2- دانيال الراهب :رحلة الحاج الروسي دانيال في الديار المقدسة، مقدمة المترجم إلى اللغة الإنجليزية،نقلها إلى العربية سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة،ط1،عمان،1992

3-الديك، احسان:دلالات العامل الديني وأثره في رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب إلى الديار المقدسة، بحث منشور في أعمال مؤتمر تجليات الرحلة في فضاءات الأدب العربي والحضارة الاسلامية، مجمع القاسمي للغة العربية، باقة الغربية، 2016م.

4- عبدالرحيم ، رائد :وسائل الدعاية الصليبة، صورة الصلبين في أدب الرحلات الأروبية، مجلة جامعة الأزهر، غزة، المجلد 13، العدد1،سنة2011،ص187.

5- عوض،محمد مؤنس: الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس،ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة،1992.

1. 1 عوض،محمد مؤنس: الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس،ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة،1992،ص74 [↑](#footnote-ref-1)
2. الديك، احسان:دلالات العامل الديني وأثره في رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب إلى الديار المقدسة، بحث منشور في أعمال مؤتمر تجليات الرحلة في فضاءات الأدب العربي والحضارة الاسلامية، مجمع القاسمي للغة العربية، باقة الغربية، 2016م، ص42 [↑](#footnote-ref-2)
3. أنظر: حمود، ناظم مجيد: الحجاج الروس وأسوار القدس، جريدة القدس العربي بتاريخ 30/1/2014 [↑](#footnote-ref-3)
4. أنظر: المرجع السابق

 5 المرجع السابق

6 أنظر مقدمتي ترجمة الكتاب: العربية لسعيد بيشاوي وداود أبو هدبة،ص7، والإنجليزية للسير دبليو ويلسون،ص23 [↑](#footnote-ref-4)
5. [↑](#footnote-ref-5)
6. [↑](#footnote-ref-6)
7. أنظر: الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس،محمد مؤنس عوض،ص75، ووسائل الدعاية الصليبة، صورة الصلبين في أدب الرحلات الأروبية، رائد عبد الرحيم، مجلة جامعة الأزهر، غزة، المجلد 13، العدد1،سنة2011،ص187 [↑](#footnote-ref-7)
8. مقدمة الترجمة الإنجليزية رحلة الحاج الروسي دانيا الراهب،ص23 [↑](#footnote-ref-8)
9. رحلة الحاج الروسي دانيال في الديار المقدسة، مقدمة المترجم إلى اللغة الإنجليزية،نقلها إلى العربية سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة،ط1،عمان،1992،ص27 [↑](#footnote-ref-9)
10. الديك،احسان:دلالات العامل الديني وأثره في رحلة الحاج الروسي داينال الراهب،ص48 [↑](#footnote-ref-10)
11. رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب،ص39 [↑](#footnote-ref-11)
12. مقدمة الرحلة ص14 [↑](#footnote-ref-12)
13. المصدر السابق،ص61+ص139 [↑](#footnote-ref-13)
14. المصدر السابق،ص55 [↑](#footnote-ref-14)
15. المصدر السابق،ص75 [↑](#footnote-ref-15)
16. المصدر السابق،ص76 [↑](#footnote-ref-16)
17. المصدر السابق،ص91 [↑](#footnote-ref-17)